Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وابحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

المفهوم الرومانسي للشعر ورؤيا التجديد عند حمود رمضان

(دراسة في التصورات والمفاهيم النظرية)

The romantic concept of poetry and a vision of renewal for Hammoud Ramadan

(A study in conceptions and theoretical concepts)

فرحات موساوي - Ferhat Moussaoui

أستاذ محاضر أ، جامعة زيان عاشور الجلفة، كلية الآداب واللغات والفنون، قسم الآداب.

Assistent Classe A University Ziane Achour Djelfa, Faculty of Literatures and Languages، Department of Arabic Language and Literature

الايميل المهني f.moussaoui@univ-djelfa.dz

المؤلف المرسل(باللغتين): فرحات موساوي - Ferhat Moussaoui الإيميل: f.moussaoui@univ-djelfa.dz

تاريخ الاستلام: 2022-10-16 تاريخ القبول : 2023-03-09

الملخص باللغة العربية:

في إطار مسعى التجديد تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن تفاصيل الرؤية النقدية للشاعر "حمود رمضان" في ساقها الرومنسي من موقع التحديث الذي حاولته الممارسات وهي تتبنى طريق التجريب مع النص الأثر في المركز، حيث انطلقت الممارسة الرومنسية إبدالا للتقليدية، في ضوء العلاقة التي أقامها الشعراء مع الثقافة العربية في المشرق.

لقد عاش الشاعر الجزائري رمضان حمود اغترابه الشعري ضمن بنية ثقافية وذهنيات غيبت الجوهري في تصور الشعر كحقيقة لفعل التقدم في المجتمعات والأمم وجعلت من الممارسة الشعري التقليدية، التي هي في حكم الموت أو في تبعية متخلفة للإحيائية؛ أنموذجا للاحتذاء.

وفي هذا المقام نخص إسم رمضان حمود بدرس موسع يعرض تصوراتها النظرية ويشير إلى الخصيصات الرومانسية التي اعتمدها في بناء مشروعه كما إلى دوره المحفز للتجديد الشعري في العربية. سواء في اهتمامه بمفهوم الشعر أو الوضع الاعتباري للشاعر، أو التفاعل مع الشعر الأجنبي، ما دامت هذه العناصر النظرية والقضايا النصية مجسدة بالخصوص لبرنامج الرومانسية العربية.

الكلمات المفتاحية: الرومانسية؛ الشعر؛ الرؤية؛ التجديد، حمود رمضان.

Abstract:

Within the framework of the endeavor of renewal, this study seeks to reveal the details of the critical vision of the poet “Hammoud Ramadan” in its romantic leg from the site of modernization that the practices tried, and it adopts the path of experimentation with the text impact in the center, where the romantic practice began as a replacement for the traditional, in light of the relationship established by the poets With the Arab culture in the East.

The Algerian poet Ramadan Hammoud lived his poetic alienation within a cultural structure and mentalities that absented the essential in the conception of poetry as a fact of the act of progress in societies and nations and made it a traditional poetic practice, which is in the judgment of death or in a backward dependence on revival; A model to emulate.

In this regard, we single out the name Ramadan Hammoud with an extensive lesson that presents its theoretical perceptions and refers to the romantic characteristics that he adopted in building his project, as well as to his catalytic role for poetic renewal in Arabic. Whether in his interest in the concept of poetry, the poet's legal status, or the interaction with foreign poetry, as long as these theoretical elements and textual issues are embodied in particular by the Arabic romantic program.

Keywords: romance; Poetry; Vision; Renewal, Hammoud Ramadan.

مقدمة:

كان العبور إلى الممارسة الرومانسية في شعر المغرب العربي عموما، والجزائر خصوصا متمثلا لعدد من العناصر النصية والنظرية التي أتاحت الخطابات للشعراء أنفسهم التعرف عليها، بعضها شاع في المركز متجاوبا مع الشعر الرومانسي الأوروبي، قبل أن يتصل به شعراء المغرب في مختلف لغاته أو ينتقل إليهم إلى جانب مؤثرات نظرية وعناصر نصية أخرى هيأت لإبدالات القصيدة في المغرب العربي.

تخلي الشعراء الرومانسيون في المغرب العربي عن بناء قصيدتهم بحسب الانموذج القديم، واختاروا العناصر التي تقودهم إلى قول الذات في اختلاف الزمن والشروط التاريخية. من هنا حملت كتابات رمضان حمود وأبي القاسم الشابي وعبد الكريم ابن ثابت ومحمد الصباغ. إشارات وتصورات عن إبدال العلاقة مفهوم الشعر وممارسته والوعي بالرومانسية مشروعا شعريا لها التفاعل مع الشرائط التاريخية ومع النص الأثر. سواء كان آتيا من المركز العربي أو الأوروبي، به تختبر مفاهيم التحديث من أجل وصل الممارسة الفردية بقيم الحرية والإنسان.

1- الاتجاه الرومنسي وبداية التحديث الشعري (بذور التحديث)

وباستقصاء المتن الشعري العربي في الجزائر يتراءى لكل باحث أنه منذ بداية القرن العشرين إلى غاية سنة 1954 لم يخرج عن الإطار التقليدي (الخليلي) «إذ لم تتبدل علاقة الشعراء الجزائريين منذ نهاية العشرينيات بالأحداث التي عاشتها البلاد غداة الحرب العالمية الثانية، تحسسها الشعراء الجزائريون معلما محدوداً لتوجه المسار التاريخي لشعرهم، إذ ابتدأت معها مرحلة جديدة مختلفة تار يخيا وشعريا عن سابقاتها..»[1].

ففي هذه الفترة الزمنية «حاولت القصيدة العربية في الجزائر نبذ التقليدية عنها، ونفض غبار الزمن العتيق عن شكلها وذلك بتقمص الشكل الجديد الذي كان بصدد الازهار على أيدي شعراء عراقيين»[2].

وإذا كان هناك من المتتبعين لشأن الممارسة الشعرية وتحولاتها، من ينفي أن شعراء هذه المرحلة لم يخلقوا شيئا جديدا يمكن تسميته إبداعا، واعتبار أن شعراءها ورثوا الإطار الموسيقي التقليدي متمثّلا في بحوره الشعرية والقافية المطردة مثلما ورثوا الواقع الجاهز الموروث، وهذا على سبيل التعمية...

وحيث «أن دور الشعر الطليعي تتبلور قميته في مدى تغييره للبنية الكلية القائمة بكل أبعادها»[3].إلا أن هذه التجارب سواء ما كان منها قبل الثورة أو في المرحلة المرافقة لها « لم تستطع أن تكون في حجم الثورة ولم تخلق ذلك المعادل الفكري والفني العظيم الذي يحضن ويكثف تجربة الانسان الجزائري المناضل..»[4].

وقد يكون هذا إجحافا إذا سلمنا بهذا الطرح، إذا علمنا أن هناك وعيا بالذات، وأن هذه الذات الشعرية (الجزائرية) وعت علاقتها بالشعر في مراحل تطوره وكانت على تماس «مع قضايا تطرح صلتهم باللغة والمجتمع، الثقافة والتاريخ الفردي والجماعي..»[5].

وقد اهتدت إلى أشكال في الممارسة النصية تتوجه إلى التحرر من قيود الدال العروضي (الوزن ووحدة القافية). كما الشأن في تحولات الشعر العربي عبر مساراته.

فهذا رمضان حمود في عشرينيات القرن الماضي (التاسع عشر) يعلن ثورته على الشعر الكلاسيكي ويقدم نطرة شبيهة بنظرة مدرسة الديوان من حيث التأكيد على أن الشعر إلهام ووجدان، ويلخص مذهبه قائلا «ألا فاعلموا أن الشعور هو الشعر»[6].

وهنا يلتقي في مفهومه للشعر مع عباس محمود العقاد، ففي مقال له بعنوان: (حقيقة الشعر وفوائده) ينبه إلى أنه قد يظن البعض أن الشعر هو ذلك الكلام الموزون المقفى ولو كان خاليا من معنى بليغ، وروح جذاب، وأن الكلام المنثور ليس بشعر ولو كان أعذب من الماء الزلال وأطيب من زهور التلال، فهذا ظن فاسد واعتقاد فارغ وحكم بارد، فالشعر كما قال شابلن(هو النطق بالحقيقة – تلك الحقيقة الشاعر بها القلب- والشاعر الصادق قريب جدا من الوحي)، نعم فهو أعلى منزلة من أن يناوله هؤلاء النظّامون الماديون عبيد التقليد وأعداء الاختراع، إذ لا يدرك كنهه إلا من له فكر ثاقب وعقل صائب وذوق سليم حتى يقدر أن يستخرج دره من صدفه وسمينه من عثّه[7].

إن الرومانسية كظاهرة شعرية ونقدية كانت منطلقاً إلى حصر الأسباب التي هيأت لممارسات جديدة في سياق الشعر العربي الحديث «ودفعت الشعراء إلى تبنيها من خلال المؤثرات التي قادتهم إلى طرائق مغايرة في القول الشعري..»[8].

2- الأفق الآخر للقصيدة وخطاب الدعوة الى تجديد الممارسة

ظل اقتراب الشعراء الجزائريين من مفهوم الشعر وتصورهم لممارساته محكوما بالوظيفة التي انتظروا استجابته لها. أي قيامه بدور في الحياة الاجتماعية بالتعليم والتثقيف، - وتأسيس قيم الإصلاح والوطنية الناشئة بعد الثلاثينات وحمايتها. ولعل السباق السياسي الذي خلق للحركة الإصلاحية في الجزائر أثرها في مجتمع يعاني من مظاهر التخلف والجمود الفكري بين الناس، كان له الأثر الحاسم في توجيه الشعر إلى ما التمسه الشعراء جوابا على القضايا الثقافية والمجتمعية (قبل الشعرية) التي كان عليهم مواجهتها. في ذلك كانت العودة إلى قيم الماضي لإحيائها من جديد في ضوء صلتها بالأصول الدينية. النصية والمجتمعية.

لقد فهم الشعر من الأمكنة التي كانت حددت عناصرها الكتابات الشعرية القديمة في تعاريفها للشعر، وبالخصوص تلك التي جعلت من أسبقية المعنى وغرض القصيدة والبيت في وحدته العناصر الأولى بالاعتبار. وكان البحث عن تصور جديد لمفهوم للشعر يتوافق مع توجه نقدي أسسه شعراء ونقاد في مسعى مراجعتهم لتاريخ الشعر العربي القديم أو إعادة تحديد الموقف منه في ضوء الحدث الذي بدأ يكتسح ممارسات الشعر العربي منذ بداية العقد الرابع من القرن الماضي. فكانت الرومانسية بالنسبة إليهم ثورة على القديم ونداء حرية في دعوتها للتخلص من التقاليد التي لم تعد ملائمة للعصر الحديث.

إن رمضان حمود بهذا التصوّر – من خلال هذا الأثر- لا يرى أن الشعر وزن وقافية فقط، ويعد هذا موقفا، بل «ثورة على أولئك المقلدين الاتباعيين، الذين ظلوا بعيدين عن عصرهم في نظرتهم للشعر، وفهمهم له.

ففي وقت يشهد فيه الإتجاه الرومانتيكي قمة عمره الذهبي هناك من الشعراء والنقاد من لايزالون في مستوى قدامة بن جعفر أو دونه، رغم الفرق الزمني الشاسع بينه وبينهم، فهم في مستوى ما قاله قدامة في الشعر من أنه الكلام الموزون المقفى، ولم يكتفوا بجمودهم هذا بل راحوا يناهضون كل مسعى للتجديد...»[9].

هذا التحول في الرؤية يحيل إلى أنّ تبني شعراء المرحلة من أمثال رمضان حمّود مهمة البحث في تجسيد المفهوم الجديد للشعر الذي يساير المتغيرات الاجتماعية والتاريخية، خاصة وأن الشاعر الجزائري اصطدم في إحساساته بالواقع المتردي ، مما كان أثره على الحياة والمجتمع «وقاد الشاعر إلى البحث ضمن العناصر الرومانسية التي وعاها على ما يجسد أفقا مغايرا لتحديث مظاهر الحياة والقصيدة في آن ...»[10].

نشر رمضان حمود عددا من المقالات بجريدة «وادي ميزاب» ابتداءا من سنة 1927 وقدم مجموعة من القصائد التي ضمها إلى مقالاته تلك في كتابه «بذور الحياة» الذي طبع في تونس سنة 1928 لأول وآخر مرة[11]. من خلال هذه الكتابات مجتمعة نلمس حماس الثورة الذي انطلق به عمل رمضان في نقد السائد من القول الشعري واستشراف الممكن الذي جاءت به الرومانسية خارج المحيط الذي كان يعيش فيه. ولعل سيرته التي كتبها في قالب قصصي تعكس تلك الرغبة النفسية في الاختصاص بطريق في التفكير وبتصورات تستقل بشخص صاحبها بخصوص الشعر الذي كان يعاصره ويعيش قضاياه[12] لذلك جاءت دعوته مترعة بإحساس التمزق وانشطار الوعي تجاه العالم والمعيش. وقاده الوعي الحاد بقضايا الراهن الذي يعيشه زمنيا وأثرا في الجسد الشعري إلى محاولة نقض الأنموذج التقليدي السائد بأخر من تمثله الفردي لقيم الرومانسية.

3- الأنموذج القديم والدعوة إلى القطيعة مع القصيدة التقليدية

3-1- نقد أنموذج الشعر القديم

يجد رمضان حمود في الشعر الجاهلي تعبيرا عن العلاقة الجوهرية بين الشعر وتاريخه، وبينه وبين مصدر أحاسيسه المجسدة في فعل المحاكاة. يبادرها مبادرة «نغمات الطبيعة الترنمة»[13]. ولعل التمثال الشعري للعلاقة بالطبيعة وفعل المحاكاة الذي ينقلها يمنع الوعي النظري من تحديد الشعر من خلال التعاريف التقليدية التي تركز على الوزن والقافية والمعنى والتي كانت وصلت إلى عطبها كما أكد رمضان حمود في ممارسته: النصية والنظرية. فهي ما دامت تنسى الخصيصات

الجوهرية في الشـعر بدءا من أثر الأحاسـيس وفعل الخيال، وليس انتهاءا باختبار اللغة الخاصة بالشاعر ذاته. يقول:

«الشـعر مسـطر بريشـة الشـعور على صحائف لغات الأمم الخاصـة بها، سـواء كانت متمدنة أو متوحشـة، ولا يختص بالأولى وحدها، بل ربما انتشـر بين أفراد الثانية أكثر منه في تلك، خلاف الشـر فإنه ابن العلم والشـعر هو الذي يهيئ له الطريق إذ يترعرع مع الإنسـانية في مهدها، وينمو تدريجيا على قدر القوة الفطرية والقابلية العقلية فيها. فهو ناموس عام تدخل تحت تعاليمه جميع الكائنات وقد يبلغ الغاية القصوى والقدح المعلى في لغة قوم فيكون الأمر الناهي وقائد زمام نهضتهم، وعليه تدور رحى حياتهم الاجتماعية، وهو ما نشاهده الآن في أواسط الغربيين الفائزين»[14].

يفتح الشـاهد نوافذ عديدة على التصـورات والمفاهيم التي نشـتغل بها على موضـوعنا. فممارسـة الشـعر تصـدر عن المشاعر الفردية بدل القوالب المتعارف عليها من وزن وعروض وقافية ولذلك كان الشـعر اختبارا للأحاسـيس في اللغة يتميز عن الشـر بـأسـبقيته في الزمن وبدوره الحيوي عبر تاريخ الإنسـانية فهو ينمي قدراتها ويشـكل القيمة المركزية في مسـار نهضـتها كما كان بمثابة القانون الشـامل الذي به تهتدي المجتمعات. ولا تعوز الشاعر الحجة في أن يرى الشعر سببا في تقدم الأمم الغربية الحديثة في اعتبارها أنموذجا ثقافيا. كما لم تعوزه الحجة من تاريخ الشـعر العربي ذاته حيث كانت الممارسات مرآة لحياة العرب. فسجلت مسار رقيهم وتفاعلهم مع الوافد من الثقافة الأجنبية الفارسـية[15]. فهذا التفاعل بلغ الشـعر العربي مدارج الكمال الذي لم يحل دون وجود من يتنطع لدوره من الشـعراء، فأوغلوا به في طلب التحسـينات والاسـتعارات الفارغة وبتعقيد العبارة انخنقوا أنفاسـه، وقضوا عليه قضاءا مبرما، لا حياة بعده إلى يوم يبعثون»[16].

لقد بدأ احتضـار الشـعر العربي فعليا مع الموشـحات الأندلسية ومحاكاتها. فرغم تحطيمها الأغلال القافية جسدت الموشـحات عجز الشـعراء فعليا عن تلمس طريق التجديد واسـتقالتهم من دورهم مع نهاية الدولة العربية في الأندلس. يقول رمضان حمود بصدد ذلك:

«ماتت الدولة الأندلسية فمات الشعر العربي معها ولا يزال ميتا أو مغشـيا عليه وجئته و الهامدة ملقاة تحت عروش الأعاجم إلى أواخر القرن الثالث عشـر الهجري حيث قيض بها الله له من ينفخ فيه روح الحياة الجديدة، ويحشـره من رمسـه المظلم إلى عالم النور والهواء العليل»[17].

3-2- مبادئ نظرية التجديد من خلال النموذج الجديد

لقد بدا من الواضح أن هذا الانسـياق وراء فكرة التحديث نتاج الصـلة بالمدرسـة الرومانسـية عبر حضـور النصـوص المترجمة من الأدب العالمي، واطلاع هؤلاء الشـعراء واتصـالهم بحركات التجديد التي عرفها الشـعر العربي خاصـة الأدب المهجري.

وإذا كانت بداية الوعي الذي غذّاه رمضـان حمود في تخليصـه القصـيدة من القيد العروضـي من منطلق إيمانه أن الوزن والقافية لا دخل لهما في الشـعر ، باعتبارهما أنظمة متوارثة إلا أنه « لا ينبغي أن نفهم من هذا أن رمضـان حمود يرفض التراث ، ويريد إهماله، فالتجديد عنده ليس عملية منفصـلة عن الماضـي أو رافضـه للتراث ، ولكنها عملية تأخذ بعين الاعتبار القيم الإيجابية فيه ، فتسـتفيد منها ، وهو لا ينظر إلى مسـألة التجديد على أنها ثورة على الماضـي ، وقطيعة وعداء بين الأجيال ، وإنما ينظر إليها على أنها قضـية حياة وتطور، والهدف من ذلك هو الارتقاء بمسـتوى الأدب العربي»[18].وتحديدا الشعر الجزائري.

ولعله من هذه البصـمة الأولى في طريق تحديث القصـيدة " يتحدد تاريخ الشـعر المعاصـر في الجزائر عبر الإبدالات التي اختارتها ذوات الشـعراء ، أو اهتدت إلى أشكالها في الممارسـة النصـية مسـارا في التحرر من قيود الوزن ثم من الوزن و وحدة القافية بالتخلي عن وحدة الدليل العروضـي الذي كان العنصـر الأول في البيت الشـعري بأثر رومانسـي – أكيد – يعود إلى ما كانت الرومانسية اقترحت مظاهره الأولى في التخلي عن الدال العروضي للكتابة ما كانت تسميته شعرا حرا أو نثرا شعريا ، أو كتابة شذوذية»[19].

غير أن واضـع هذه البصـمة " حمود رمضـان " لم يعضـد ذلك بنماذج ، عدا بعض الأبيات من الشـعر المرسـل التي حاول فيها الابتعاد عن ضـوابط القافية باختيار طريقة المقطع مثل ما نجده في قصـيدة " دمعة حارة " والتي أخضـع قافيتها لتناوب الروي بحروف (اللام والباء والميم) ، حيث يقول :[20]

بكيت ومثلي لا يحق لـه البكا
على أمة مخلوقة للنـوازل
بكيت عليـها رحمة وصبابة

وإني على ذاك البكا غير نادم
ذرفت عليها أدمعا نواظرا
تساهر طول الليل ضوء الكواكب
بكيت على قومي لضعف نفوسهم
على حمل أثقال العلى والفضائل
بكيت عليهم والحشى متقطع
بكائي على طفل ضعيف العزائم
بكيت عليهم إذ رأيت حياتهم
مكدرة مملوءة بالعجائب

أول محاولة – تكاد تكون – وحيدة مزج فيها بين الشعر المنثور الخالي من الوزن المرتبط بالقافية ، وبين الوزن المتراوح القافية ، على انها محاولة للتخلص من وحدة الوزن والقافية «وهي محاولة تتسم بالتجريب والبحث عن إطار موسيقي غير الإطار التقليدي الصارم»[21]. وذلك من خلال قصيدة " يا قلبي" التي نشرت سنة 1928[22].

والتي وزعها غلى مقاطع متباينة في انتظامها، محاكية في ذلك تحولات التجربة الشعرية الرومانسية في إطار البحث عن شكل يحمل نفحة التحرر من الموروث.

هذه القصيدة التي طرح من خلالها مبادئ نظريته الداعية إلى ان الشعر الجيد لا يتقيد بالوزن والقافية ، حيث يقول:[23]

أنت يا قلبي فريد في الألم والأحزان
ونصيبك في الدنيا الخيبة والحرمان
أنت يا قلبي تشكو هموما كبار وغير كبار
أنت يا قلبي مكلوم، دمك الطاهر يعبث به الدهر الجبار
ارفع صوتك للسماء مرة بعد مرة
وقل اللّهم إن الحياة مرة
إلى أن يقول:
أما آن للسعادة أن تشرق في سمائك
أما آن للبدر أن يسطع في سمائك
أما آن أن ينطق بالأفراح دهرك الصموت

لقد حاول رمضان حمود في هذه القصيدة وفي قصائد مماثلة[24]. تغيير بناء البيت الشعري بتوزيع الأبيات إلى مقاطع متنوعة، نحا في بعضها مسلك التحرر من القيد العروضي المتوارث، وجاء بعضها مرسلة تنوع فيها حروف الروي، وفي أخرى التزام الإيقاع، كل ذلك جاء منسجما مع تصوره النظري الذي ينطلق من العتبات الرومانسية، في أن الممارسة الشعرية فعل حرية، باعثها تلك الإرادة المتحررة والوجدان اليقظ. هكذا أراد حمود رمضان للشعر أن يكون ، فاتجه إلى كتابة «القصيدة ذات القوافي المتراوحة في وقت كان فيه الشعراء المعاصرون له يلتزمون القافية المطردة والشكل العمودي الصارم»[25].

وسندا إلى ما ذهب إليه شاعرنا الطموح يقول إلياس فرحات : «أما الشاعر فما عاد وازنا أو رصّاف عبارات وألفاظ أو صانعا محترفا متمكنا من تعريف التعبيرات ووجوه القول دون أن تستدل بما فيه أو صناعة على اي ملمح من ملامحه أو أي شكل من أشكال تفكيره تصوره وتناوله للأوامر أو مبادئه أو آرائه ، وما عاد هذا الشاعر ينظم إلا مدفوعا بدافع نفسي وشعوري قوي ، ولا بد أن تكون نفسه جائشة وشعوره متوافراً وأن يكون منفعلا بما ينظم انفعالا قويا ، وهذا ما جعل شعر المناسبات يقل بشكل واضح عند الشاعر الحديث»[26].

وإننا نحسب أن "رمضان حمود" بهذه المحاولات المتفردة لتجديد بناء القصيدة في تشكيلها الموسيقي، وهذه النقلة في الرؤيا – على قدر بساطتها – لها فضل السبق، إلا أن نداءاته المبكرة توقفت عند حدود قصر حياته.

ضف إلى ذلك انفراده في دعوته لما يساعد على ترسيخ المفاهيم الأدبية الجديدة في الشعراء الذين عاصروه أو تلوه ، باستثناء بعض اللمحات لشعراء اقتفوا أثر دعوته النقدية من موقع التعبير عن الخطاب الذاتي (الفردي) «الذي يفهم ممارسته بحسب العناصر النظرية المستجدة في بداية الثلاثينيات ، أي في اعتبار الشعر لغة مخصوصة بالشاعر وموسيقى تبعث على التفكير وتدبر التأثيرات شعريا»[27].

ومن الأسماء الشاعرة التي انعكست عليها تلك التجربة ، ومثلت تلك الممارسة " عبد الله شريط " من خلال قصيدته " قلق" التي يقول فيها:[28]

سخرت منّي الحياة كما يسخر بالعابد الغبي صليبه
كم حرقت الأحشاء في هيكل الدنيا بخورا ورجع شعري
طيبه وتقدمت للحياة بما في القلب من نبض شوق يذيبه
حاسبا صمتها استماعا ولكن هو موت بالدود فاض صبيبه.

ويبقى أنْ نقر أنّ شاعرنا رمضان حمود قد زرع «البذرات الأولى الواعية بضرورة تغير النص الشعري الجزائري الحديث تغيرا شكليا وجماليا في الممارسة النصية ، مرافقة لتغير البنيات الفكرية والشكلية للمجتمع الجزائري»[29]، وتمثلا أوليًا للتصور العام لآليات التجديد الشعري والانطلاق من خلالها في التأسيس لنص شعري حداثي فقد «عبرت محاولاته

الشـعرية والنقدية معا عن حاجة إلى تجاوز الإطار التقليدي الذي فرض رقابته الشـكلية والفكرية فشـاع اجترار المعاني والقضايا ضمن قوالب جاهزة»[30].

إلا أنه - إنصـافا - يمكن التأكيد على أن رمضـان حمود لم يأت « بممارسة نصية متكاملة العناصر ومستوعبة للشروط النصية عدا محاولته اختراق البنية الإيقاعية للشعر غير أنه قاد فكرة الخروج عن القافية ونظام الوزن في الشـعر الجزائري الحديث بدعوة ظلت محدودة الأثر وغير كافية لتبيين طريق الابدال الشعري»[31].

3-3- مراجعة في شعر مدرسة الإحياء والتراث

ينظر رمضـان حمود إلى ممارسـة الشـاعر المصـري أحمد شـوقي كأول محاولة حقيقية ابتغت إحياء الشـعر العربي واسـتدراكه من الموت. غير أنها لم تجعل من هذا الشـاعر غير صـدى الأصـوات من سـبقه من الشـعراء العرب عبر القرون، وظلت أبعد عن إدراك الطريق التي تقود إلى انتماء العصـر الذي يعيشه العرب وإلى الشعر الذي كانوا يحتاجون آنئذ.

كانت مراجعة رمضـان حمود لشـعر أحمد شـوقي فرصـة لإعلان ضرورة إعادة التفكير والنظر في الشعر العربي المعاصر لـه ونقض نظريتـه التقليـديـة وطريقـة اسـتعـادة أنموذجهـا وإحيائه. فالنقد لا يكتمل دون التفكير في بناء نظرية أخرى تكون بديلا أقدر على التعبير عن العصـر الذي توجد فيه. لذلك يرى رمضـان حمود أن شـعر أحمد شـوقي؛ الذي جعله موضوع تمثيل لنظريته في تخلف الشـعر العربي عن الزمن؛ لا يمثل هذا الاتجاه في شـيء. فهو لم يحمل جديدا إلى الشـعر العربي وظل خاضـعا لهيمنة المثال القديم. كم أنه لم يأت بشـيء جديد لم يعرف من قبل، أو من طريقة ابتكرها من عنده، وخاصـة به دون غيره، أو اخترع أسـلوبا يلائم العصـر الحاضر»[32]. بل إن شعره ظل في أغراضه ومعارضاته أقرب إلى العصـور القديمة منه إلى القرن العشـرين في حاجته إلى شـعر وطني يناسب تطلعات النهضة الجديدة في الشرق.

ولعل اختيار الجزائري للشاعر المصري موضوعا للنقد إنما كان يهدف من ورائه إلى نقد التوجه السائد في الشعر الجزائري الذي اعتبر أمير الشعراء النموذج الأعلى، وفيه كان يرى النص الأثر. ولعل انتهاء الخطاب إلى رفض الإسم الرمزي في ممارسات المركز؛ (كما تمثله رمضـان محمود من خلال شـعر أحمد شـوقي) أدى إلى عدم الاعتراف بالنهضـة فيه واعتبارها غير مكتملة الإنجاز. بل ولا تسـتحق الحركة التي تسـمت كذلك الاعتبار والاعتراف بحضـورها وبدورها التاريخي؛ ما دامت اختارت طريقا تقليديا ولم تهيئ للشـعر فيها وضـعا أسـاسـا. في البند الرابع عشـر من خلاصـاته يقر رمضـان حمود ما انتهى إليه قائلا:

«عدم اعترافي بنهضـة الشـرق الحديثة ما دامت لم تؤسـس على مبادئ عظيمة وحياة بنات جديدة، وأدب قومي»[33].

ولعل هذه النظرة الشـاملة في الوصـل بين الفكر والأدب والحياة لا تتأتى دون إبدال مواقع الرؤية والاختيار الشعري إلى العلاقة بالأنموذج المعتمد. في ضـوء ما يمكن أن تقوم به ترجمة من دور محوري في تلقيح الممارسة بالعناصر المؤدية إلى التبديل والتغيير في القصيدة.

4- الحاجة إلى الترجمة

تهيأت فكرة التجديد لدى شعراء المغرب العربي بعد اتصال بعضـهم بالأفكار والطرائق التي نهجها الشـعر الحديث في أوروبا، وفي ذلك كان البعض قصـائد الشـعراء الفرنسـيين مكانتها عند رمضـان حمود فقد اعتبرها أنموذجا شـعريا يسـتحق الترجمة التي قد تسـاعد الأدب العربي من تلقيح على الصور والأساليب التي يوظفها بأخرى مغايرة، وكلما كان الأدب محافظا على تقاليده كلما ظلت لغته سجينة الجمود والتقليد الأعمى لا تخرج منه إلى بالاحتكاك مع اللغة الاجنبية. فكلما كان الأديب متحررا استطاع أن يحيى ميت الشعور؛ وأن يحرر الأدب - اللغة ويجعلهما قادرين على أجمل روح الحياة وسـر الجمال، [سـعيدين] بعامل التجدد وفضـل الأجنبية»[34]. يقول رمضان محمود:

«إن عوامل التغيير في مملكة الأدب كثيرة لا تحصى، أهمها الترجمة الصحيحة أو التعريب الذي يقطع به مسافات بعيدة من مركز التقليد إلى غاية التقيد»[35].

فتحديث الأدب العربي يمر من الترجمة والاحتكاك بالأدب الأوروبي في صـوره وأسـاليبه بما يضـفي عليه تجديدا في الروح والرؤية وطرق التعبير. بالخصـوص وقد فقد هذا الأدب وهجه وقدرته على الحضـور في الزمن. ويتجاوز رمضـان حمود مفهوم التجديد. مع توسيع تصوره وفاعليته - استيعاب الأدب العربي للعناصـر الأجنبية وإغنائه بها إلى اعتباره عملية إحياء في زمن يختلف عن الماضـي وتحتاج فيه الممارسـة إلى الانخراط في الحياة المعاصـرة. وفي هذا يكون للترجمة دور في تغيير الأدب وتجديده. يقول:

«لا أقول أن الأدب العربي ضيق يحتاج إلى توسيع، أو معزز يفتقر إلى ثروة أجنبية أو خامل الذكر فلا بد له ممن يرفع صوته ليعرفه الناس، ولكني أقول وأكرر بكل حرية. ولا أفوه إلا بما أعتقد. إنه مريض ومشرف على الهلاك إن لم يتداركه أبناؤه في عصر يخالف تمام المخالفة عصوره المنغمسة في حالة الجو الحاضر، إذ أن حياة اليوم غير حياة الأمس، وحياة الغد غير حياة اليوم، نعم يحتاج إلى نطاسي ماهر يعرف موضع الداء فيقاومه بالدواء الملائم له حتى يبله الله ويرجع إليه صحته الأولى في رونق جديد»[36].

يبني رمضان حمود رؤيته للشعر العربي الجزائري على وقع تبعيته وتقليده للشعر وللأدب العربي في المركز المشرقي الذي يعيش انتكاسته بسبب تخلي الشعراء عن أدوارهم. ولذلك جاء الشعر الجزائري الذي يجايله ويحاكيه على قدر من الضعف والفساد الذي يحتاج معه إلى التزود بأسباب الحياة. وهو لا يمكن أن يستقيها إلا بالاتصال مع القضايا المستجدة بالزمن، والإفادة من لقاح الترجمة التي قد تحمله على التعرف على الصور والتعابير والأساليب الجديدة المغايرة «وأما السكوت عن ندائه وتركه يتألم في فراشه فمن الخطورة مما كان، ألا فلينتبه الغافلون من أبنائه، فإن لكل زمان رجال ولكل جيل أدب مخصوص به، لا يلزم أن يقلده الجيل الذي يليه من بعد ولا هو يتوقف على من قبله»[37].

5- رمضان حمود وعتبة الإبدال الرومانسي

نسجل في هذا المقام عدم اقتناع رمضان حمود بقدرة المركز: (الشرق) على تجسيد مفهوم النهضة في قيمها وحقيقة ممارساتها التاريخية. وإذا كان لهذه الملاحظة من أثر قد يحمل البحث إلى إعادة سؤال التصور الذي يرى بأن المغرب العربي لم يتعرف على الرومانسية إلا من خلال النص الأثر الذي أنتجه المركز الشعري العربي! فإننا نكتفي اللحظة بإجمال تصورات رمضان حمود في اعتبار ما أثارته من عناصر هي بمثابة البذرة الأولى في مسار التحديث والإعلان الأقرب في الزمن من الإبدال الرومانسي في المغرب ولو على مستوى الوعي النظري في العناصر الآتية:

1) تمثل رمضان حمود الإبدال الشعري من خلال رفضه التقليد الذي سادت فيه الأشكال المفرغة. ومن خلال دعوته إلى إعادة بناء تصور الممارسة الشعرية في اعتبار الدور الحيوي للشعر في الحياة، في صلة ممارساته بالذات الفردية، وبفعل الخيال.

2) نفيد من ذات التصورات الوعي بالحدود النظرية التي يتكلم رمضان محمود في إطارها. فانطلاقه من قيمة الأدب ومن مركزية الشعر فيه جعل اهتمامه ينصب على العلاقة التي تربط الشعراء الجزائريين بأنموذجه القديم والحديث أولا؛ ومن ملاحظة الولاء للشرق الذي كان يتجاوز عمليا أهمية الممارسات القابلة للنقض وقد عدت أنموذجا بعد ذلك.

3) اعتماد مفهوم التحديث والانتماء إلى العصر عنصرا موجها للتصورات الشعرية، وحيث يصبح الوعي الرومانسي بعناصره الأساس محددا المفهوم الشعر والتصورات التي ترافقه.

4) إلى الحقيقة والنبوة التي حددت الغاية ووضع الشاعر في الممارسة الشعرية يقوم مفهوم التقدم واضحا في خطابه النظري لرمضان حمود كاس يعتمد من أجل التحديث والثقافة القومية لديه.

يتعارض إنجاز هذه القيم واستثمارها في الشعر العربي مع استمرار تصور الشعر بنفس الفهم والوظائف التقليدية التي كان يؤديها في الثقافة العربية القديمة، والجزائرية المتداولة بالخصوص. غير أن من ملاحظة مال الأدب العربي (والشعر منه في المقام الأول باعتباره القول الغالب على ممارساتهم) بعد تألق وازدهار؛ ووعي الحاجة إلى إعادة النظر في الطرق التي تبناها ليتوافق مع ضرورته الثقافية والمجتمعية وليستجيب لقيم الحياة؛ لا يثني رمضان حمود من تبين شروط الممارسة وهي الاستقلالية والتواصل في. وباللغة واستمرار العلاقة بالماضي ...

خاتمة:

وختاما، يبدو من المؤكد أن حمود رمضان أستطاع أن يحول التجربة إلى ممارسة فعلية وحيث أن التجديد في الشكل لا قيمة له إلا إذا حملا رؤية جديدة للواقع، وكان حاملا لهذه القيمة، ويفصح عن موقف محدد بنظرة شاملة، وإلا كانت التجربة مجرد تجريب لا أكثر، ويبقى اهتمام شعراء الجزائر من خلال دعوة رمضان حمود في حدود التنويع عروضي تارة وخروج عن حدود البيت الشعري الذي ورثوه أو أنتقل إليهم عبر رياح الرومنسية تارة أخرى، فكان هاجس الممارسة

يدفعهم إلى محاولة إنتاج نص شـــعري ينطق وعيا (محدودا) بالانتماء إلى فكرة التحديث الشعري.

وما قدمه رمضـان حمود من تصـورات في نقد الشـعر يعد تفصـيلا نظريا لجوهر الرؤية التي اختص فيها في تاريخ الشـعر الجزائري، مستجيبا لتلك الخصوصية التي حملتها الرومنسية، ومسـتجيبا لما بينت به ممارسـتها الشـعرية ولما كانت به تقترب من فعل التحديث.

من أجل ذلك طرح رمضـــان حمود عـددا من القضـــايا والموضوعات الحيوية بخصوص مفهوم الشعر وممارسته، لا بالنسـبة للجزائر وحسـب، بل وأيضـا للشـعر العربي إجمالا في أفق بحث عن المسـارات الكفيلة بتحرير الشـعر العربي وتغيير تصـوره وقضـاياه، وتأكيد صـلته بالعصـر الذي يوجد فيه من مكان الحريـة التي افتقـدتهـا ممـارســـاتـه في العلاقـة بـاللغـة والخيال، وقد قاده الوعي الحاد بقضـايا الراهن الذي يعيشـه زمنيـا وأثر في الكيـان الشـــعري إلى محـاولـة نقض الأنموذج التقليدي السائد بآخر من تمثله لقيم الرومانسية.

. قائمة المراجع:

• **الكتب:**

حمود رمضان، بذور الحياة، ط1، مكتبة الاستقامة، تونس، 1928.

سمير بدران قطامي، إلياس فرحات، شاعر العرب في المهجر، حياته وشعره.

عبد القادر رابحي، النص والتقعيد، ج1 (م س).

عبد الله شريط، الرماد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر. 1979.

عبد المالك مرتاض، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر (1830-1962) رصد لصور المقاومة في الشعر الجزائري، ج2، ط1، سلسلة منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، الجزائر، 2003.

عمار بن زايد، النقد الأدبي الجزائري الحديث، (م س).

عمار بن زايد، النقد الأدبي الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.

عمر أزراج، الحضور، مقالات في الأدب والحياة (عن التجربة الشعرية الجزائرية)، م و ك الجزائر.

عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث، تاريخا وأنواعا وقضايا وأعلاما د م ج 1995.

محمد الهادي الزاهري، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج02، مطبعة النهضة، تونس 1927.

محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، (م س).

محمد ناصر، رمضان حمود حياته وآثاره، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 2، الجزائر، 1985.

محمد ناصر، رمضان حمود، الشاعر الثائر، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1978.

يوسف ناوري، الشعر الحديث في المغرب العربي، ج1، ج2 (م س).

• **المقالات:**

حمود رمضان، مجلة الشهاب، ع 22 (1927/02/22).

. الهوامش:

1- يوسف ناوري الشعر الحديث في المغرب العربي. ج2 (م س) ص:29

2- انظر عبد المالك مرتاض. أدب المقاومة الوطنية في الجزائر (1830-1962) رصد لصور المقاومة في الشعر الجزائري. ج2 سلسلة منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر – 2003 ط1 ص24

3- عمر أزراج ، الحضور ، مقالات في الأدب والحياة (عن التجربة الشعرية الجزائرية) م و ك الجزائر ، ص:17

4- المرجع السابق، ص:17

5 - يوسف ناوري، الشعر الحديث في المغرب العربي ، (م س) ، ج2، ص:28

6 - حمود رمضان ، بذور الحياة ، ط1، مكتبة الاستقامة ، تونس ، 1928 ، ص: 103

7 - حمود رمضان ، مجلة الشهاب ، ع 22 (1927/02/22) .

8 - يوسف ناوري ، الشعر الحديث في المغرب العربي الحديث ، (م س) ، ج1، ص : 202.

9 - عمار بن زايد، النقد الأدبي الحديث المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1990 ص:83.

10 - يوسف ناوري. الشعر الحديث في المغرب العربي ج2 (م س) ص:202

11- نشر محمد ناصر، شعر وكتابات رمضان حمود في مؤلفه:

رمضان حمود حياته وآثاره، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 2، الجزائر، 1985، ص358. ونعتمده المصدر الأساس للدراسة.

12- رمضان حمود، الفتى؛ قصة إصلاحية ومرآة من حياة شاب يسعى لإعزاز شعبه وترقية أمته، ضمن: المرجع السابق، ص ص309-348.

13- رمضان حمود، حقيقة الشعر وفوائده، ضمن: محمد ناصر، رمضان حمود حياته وآثاره، م س.، ص120.

14- المرجع السابق، ص120.

15- المرجع السابق، ص122.

16- المرجع السابق، ص123.

17- المرجع السابق، ص124.

18 - عمار بن زايد. النقد الأدبي الجزائري الحديث (م س) ص:117

19 - يوسف ناوري. المرجع السابق. ص: 28،29

20 - محمد الهادي الزاهري ، شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج02 ، مطبعة النهضة ، تونس 1927 ، ص:173

21 - أنظر: محمد ناصر ، الشعر الجزائري الحديث (م س) ، ص:201

22 - أنظر : محمد ناصر ، رمضان حمود ، الشاعر الثائر ، المطبعة العربية ، غرداية ، الجزائر ، 1978 ، ص 160

23 - المرجع نفسه، ص:161 و ما بعدها

24 - تعد قصيدة " موت الغريب" 1928 من النماذج التي اراد أن يكرس من خلالها هذه الرؤية ، ينظر محمد ناصر ، رمضان حمود حياته وآثاره (م س)، ص: 173 وما بعدها.

25 - أنظر: محمد ناصر ، الشعر الجزائري الحديث ، (م س) ، ص: 201

26 - أنظر: سمير بدران قطامي، إلياس فرحات، شاعر العرب في المهجر، حياته وشعره، ص: 229

27 - أنظر: يوسف ناوري، الشعر الحديث في المغرب العربي (م س) ، ص: 207

28 - عبد الله شريط الرماد. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر. 1979، ص:81

29- أنظر: عبد القادر رابحي، النص والتقعيد، ج1 (م س)، ص: 63

30- عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث، تاريخا وأنواعا وقضايا وأعلاما د م ج 1995، ص: 77

31- أنظر يوسف ناوري، الشعر الحديث في المغرب العربي، ج2، ص: 204

32- المرجع السابق، ص125.

33- المرجع السابق، ص131.

34- رمضان حمود، الترجمة وتأثيرها في الأدب، ضمن المرجع السابق، ص135.

35- المرجع السابق، ص137.

36- المرجع السابق، ص136.

37- المرجع السابق، ص136.